مدخل

اقتضت حكمة الباري استخلاف الإنسان في الأرض؛ ليعمر عمارها، ويشيد صروح بنائها؛ لتقام فيها عبادته، ويُذكر فيها اسمه، ويحكم فيها بشرعه وحق منهاجه الإيماني الذي أنزله مع رسله.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[1]

فسخَّر له مكونات السموات لاستغلالها وصرف له مقومات الأرض لاستصلاحها،وتهيئة عناصرها؛ للانتفاع بها، وأوجد له من أسباب العلم ما يطوعها، ومن المعارف ما يهذبها، متجنبًا خطورتها واستبعاد مضارها؛ ليطمئن لتناولها ويأمن تداولها، وليستقصي أقصى منافعها وأوج مشاربها، مُروّضًا حِدّتها دافعاً ضراوتها محيداً شراستها متوخياً السلامة منها؛ كي يدير شؤون حياته ويتدبر مستلزماته وضرورات عيشه .

ذلك أن الإنسان يمثل مركز العملية الحياتية، ومحور دوران فلكها ومكلف بعمارة الأرض ومنجز حضارتها، فهو الذي ينتج وهو الذي يستصلح، وهو الذي يستفكر الأفكار ويستصنع المواد

[1] سورة البقرة، الآية: ٣٠.

ويستخلص المنتج ، وفي نهاية الدورة الإنتاجية هو نفسه المستهلك، فهو إذن المنتج، وهو الذي يستنفد ما ينتج.

وهكذا تدور عجلة الحياة التي هو قطبها ليستديم عطاؤها بجهده وما يبذل من سعي وكد ودأب، إنتاجًا واستهلاكًا في أي مشرب من مشاربها، يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [1]

فهو الذي اختاره لإدارة كيان الأرض وعمارتها؛ ليقيم منظومة الحياة على أساس من التقوى والبصيرة، ومن البصيرة تأهيل نظم الحماية، وتشكيل أسس السلامة؛ لكي تسير المسيرة سيرتها الطبيعية وتستوي على عودها؛ ليستدر عطاءها موردًا هنيئًا؛ ويقتات عليها قوتاً مريئاً؛ ليبلغ الغاية الإلهية من استخلافه فيها، فيحيط ذاته وما كسبت يداه بحوائط أمان وسياجات سلام؛ ليهنأ بما سخر له ربه يستهلكها كفاءة وكفاية.

فالإنسان إذن محور العملية الحياتية الآمنة ، ومحرك دورانها ، ومدير طاقاتها ، مشكلاً قوة إيجابية ذات نفع وصلاح وبناء مشيد .. إذا بصر واستبصر.. عقل واستعقل .. رشد واسترشد.

---

[1] سورة البقرة، الآية: ٣٠.

لكنه بالمقابل قد يفقد البصيرة ولا يدرك الغاية، فيتحول إلى قوة سالبة مدمِّرة إذا لم يراعِ أصول وقوانين الحياة التي هي مزيج من سلب وإيجاب، فإنْ طغى الإيجابي على السلبي استقامت الحياة، وإن قام السلبي على حساب الإيجابي سلبت وساءت .

وعلى هذا المعيار يقوم قوامه ، تمثل فيها الإيجابية جوانب الأمان، وتمثل السلبية مهددات الأخطار. فالإنسان أداة قوة موجبة إذا علل معاني الخطر، وأدرك دلائل الحوادث قبل وقوعها وأغلق ثغراتها، فإن لم يتوقَّ منها تبقَ أبوابها مفتوحة، تتهدده مخاطرها، مما يعني اضمحلال طموحاته وهدر قدراته الإيجابية، لتتحول إلى طاقة سالبة تؤثر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على حياته، تستنزف قواه تعطِّل معايشه، وتحيطه سوالبها طالما لم يحط نفسه وماله بما يقيه، ولم يتخذ من الأسباب ما يمنع شرها، فقد تقع منه موقعًا أليمًا يعوق عطاءه أو يعرضه لمهلكه.

من أجل ذلك احتلت السلامة أولوية قصوى على مستوى حياة الإنسان في حركته وسكنته في هدوئه ونشاطه، حين كدِّه أو الخلود إلى راحته، وأينما كان مستقرًا أو متحركًا وفي كل أروقته، وأينما وجَّه سعيه.

وبما أن مشاغل الحياة كثرت والمعايش تضاعفت، جعلت الإنسان لاهثًا وراء مكاسبها مُلاحقًا فرصها يصبُّ جل اهتمامه في اتجاهها مهملاً جانب السلامة التي هي جوهر حياته وناجعة معاشه تستحق أن تنال حظًّا من الاهتمام درءً لخطر وتجنباً لما انشغل عنه حتى وقع ما لا كان يعتقد وقوعه من حوادث تصيبه آلامها

في مقتل أو إعاقة أو عجز يُقعده عن العمل والكدِّ ، حيث كان منشغلاً عن احتمال حدوثها، فلم يُعطها حقها من الرعاية ولم يتمثل قول المصطفى –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في الحديث المشهور:"**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ...** " .

فأين الرعاية للمنزل بعد أن تقع فيه حوادث مؤلمة؟ فهل يعني أنه لم يصن مسؤوليته، أي: أمانته، فمن لم يرعها فقد أضاع الأمانة تجاه نفسه وأولاده ومأمن سكنه. وفي الحديث الآخر "**ابدأ بنفسك ثم بمنْ تعول**". فالإعالة هِمّة ورعاية، وهنا ندرك مدى أهمية السلامة ودورها في حياتنا ، فهي برهان الاستقرار ورهان الأمان في الحلّ والترحال.

ولما كان الإنسان راعي بيته ومن يؤول إليه أمرهم فهو الراعي الأساسي والقيِّم على سلامته، حيث أصبح الخطر يساكن الأسر، ويعاقرهم في منازلهم، تحفّهم الحوادث من جوانب عديدة لا يدركها الساكنون ، فمن مواد غازية وكيميائية وأخرى حافظة، وأجهزة حديثة لا تخلو من خطورة غير منظورة يجهلها الكثير من المتعاملين معها، ويغفل عنها بعضهم أو يستهينون بها، فلا يُعيرونها أدنى اهتمام؛ لمجرد أن مظهرها لا تبدو عليه ملامح الخطر، فيركن إليها دون فحص أو مراجعة أو وقفة تأمل؛ لما تنطوي عليه من أذى، زد على ذلك عدم العناية بطريقة التشغيل، وملازمة الصيانة والنظافة مما يزيد فرص الحوادث من حيث لا يدرى.

والحوادث وإنْ تنوعت ظروفها وأماكن وقوعها إلا أنها في المنازل ذات أثر بالغ ، لأنها تضم فلذات الأكباد ومرتع السكن الأسري والسكون الزوجي الذي أساسه أب وأم هما عماده، تقع عليهما مسؤولية رعايته وتعهده بالمحافظة عليه من محدثات الحوادث، وهي أمانة ملقاة على عاتقيهما تجاه أنفسهم وأبنائهم ومقر سكنهم وأمن أرواحهم، مما يضعها في بؤرة الاهتمام خاصة أنها مأوى أفراد الأسرة؛ لتحصينها ضد ما يهدد راحتهم، ويقيهم غوائل الحوادث ليكون سكنُهم آمنًا، وحالهم مُستتبًا من مفزعاتها.

فاتقاء الحوادث مطلب حياتي في غيابه لا تهنأ الأسرة بمقام، وهي حاجة ملحة لعافية الحياة، حيث ينعدم الأمان في بيت محفوف بالخطر.

ولعل من البداهة الإشارة إلى أن الحوادث المنزلية تأتي على رأس قائمة الحوادث الأكثر إيلامًا لما لها من تأثير ووقْع عميق في النفوس وما تخلفه من خسائر في الأرواح والممتلكات تعصر القلب وتعصف بالسكون وتبدِّد الاطمئنان وتئن لها أنين الحزن.

ومع الأسف فعلى رغم كثرة ما يقع من حوادث مؤلمة في المنازل تذهب ضحيتها أرواح بريئة وتتلف فيها مقتنيات ثمينة، إلا أن الاتعاظ بها شحيح، ودرجة التوقي منها ضئيل، والاحتياط ضدها لم يرقَ لمستوى ما يجب، مما أدى إلى تزايدها، فجعلت البيوت عُرضة لمآسيها، تتربص بها الدوائر في ظروف التهاون وعدم أخذ الحيطة، وقلة الحرص والحذر من وخيمها ، وبرغم ما يقع من حوادث مأساوية في المنازل منشورة ومشاهدة ومسموعة

مدعومة بالأرقام، وشواهد حية مصوَّرة مقرونة بتحليلات من واقع حدوثها، ومع هذا لا ترى حراكًا قويًّا للمبادرة بتحصين المنازل ضد الحوادث واستشعارها؛ لئلا يتكرر ما يحدث في بيت آخر كدرس استوعبه الجار أو منْ سمع وشاهد.

فالصيانة مهملة مع أنها من أهم عوامل السلامة، وتفقُّد أعطال الأجهزة والأبنية ووسائل الطاقة وما قد يقود إلى مضار وتلف يُودي بالأرواح ويخسر المنازل ويُفقدها سكينتها ويُبدد هدوءها، ويحلّ بها الأسى والحزن، فنجد صيانة البيت الإنشائية ومكوناته المعمارية وأجهزته ومواده وأدواته معرّضة للعطب والخراب وضعف الكفاءة والاهتراء، يحتاج إلى صيانة دورية وتفقُّد بين فترة وأخرى؛ لكشف ما يعتريها من خلل أو ضعف قد تسبِّب حوادث تصيب في مقتل؛ فعدم تعهدها بالصيانة يعني تراكم خللها وتفاقم عطلها مما يرشحها إلى وقوع حوادث مؤلمة.

ناهيك عن الأجهزة الكهربائية والسخانات ومقابس الكهرباء وتمديدات التسليك وخزانات المياه وتوصيلات الغاز وأدوات الطبخ وما إلى ذلك كثير، تتطلب صيانة بين آونة وأخرى؛ لقطع دابر حوادث وتفاديها قبل وقوعها.

إذن: السلامة ثم السلامة . والعجب كل العجب من أناس يرددون كلمة السلامة في مآويهم وتقلب مثاويهم، ويسمعون الحث عليها صباح مساء وحين يضحون ويمسون، ومع هذا لا يتحرك فيهم ساكن، فلا تعدو أن تكون كلمة عابرة تتردد لا تلوي على شيء من معناها أو التوقف عندها، بل لا توحي لهم بأي مدلول

يستحثهم ليحققوا على الأقل الحد الأدنى من الحيطة من مخاطر وما يحف بهم من مهددات المهالك، تطوقهم مضراتها من كل صوب.

فإنْ ذهبتَ إلى الكهرباء فخطرها جسيم، وإنْ ذهبتَ إلى المطابخ فهي بؤرة خطر، وإن التفتَ إلى الغاز فهو الموت الزعاف، وإنْ تصورت حريق فذلك أدهى وأمرّ، وإنْ جُلْتَ بناظرك في أرجاء بيتك فلا تعدم أنْ تجد مؤشرًا لخطر أو سبب لحدث.

وإنك لتعجب أن معطيات المخاطر بادية للعيان، لكنها مغفلة التحسب منها والحذر من غدرها. فكيف بمثل هؤلاء يعرفون الخطر فلا يتوقون منه، ويعلمون سوءه فلا يتجنب؟! ولو على مبدأ تقرير الضرورة بقدر الضرر. وهو ما يعني أن نقرر ضرورة مدافعة المضرة قبل أنْ تقع أخذاً بالأسباب.

❁❁❁